كنـزي العتيق

- أتعلم ما هذه..؟.

- لا.

- إنها إشارة تدّل على وجود كنز مدفون في مكان ما هنا.

- كنز ..؟.

لم تخطئ أذني وسمعت قريبي يؤكد على وجـود كنـز فـي هذا الحقل بعد أن وجدنا إشارة وبالصدفة محفورة علـى إحـدى الحجارة الملقاة عند باب الحقل. والحقل كبير وقريب من بيتنا، وله تضاريس طبيعية جميلة. ويتابع قريبي تأكيده بأن مثل هذه الإشارات تُحفر على الحجارة للدلالة علـى مكـان كنـز مـدفون في مكان ما. نحدّق بالإشارة ونقارنها بما شـاهدناه فـي بـرامج الأطفال وما سمعناه مـن قصـص خياليـة، فيتحـوّل الشـك لـدينا إلى يقين، ونقفز فرحاً لاكتشافنا كنز، ودون أن ندرك ما الفائدة من أن نجد كنـزاً..!!، كـل مـا نعرفـه إنـه آلاف القطـع الذهبيـة والمجوهرات النفيسـة، حسـناً ومـاذا سـنفعل بهـا..؟، لـم نسـأل أنفسنا هذا السؤال لأن مفهومنا عـن الفقـر والغنـى لـم يكـن قـد تكوّن بعد، وكنا نحيا حياة مليئة بحب الاكتشاف والمغامرة.

ونجلـس علـى الأرض الترابيـة، وعقـدنا اجتماعـا أحطنـاه بمستوى عالي من السريّة ومستوى عالي ودقيق مـن التخطـيط

والجديّة، نرمي القرعة بيننا لانتخاب قائداً للحملة كعادتنا، فيفوز بها قريبي ويبدأ رسم الخطط.

- جدتي، هي الشخص الوحيد الذي يعرف مكان الكنز، و ربما هي من دفنه هنا مع جدي.

- ولماذا جدتي..؟.

يقطب شريكي باهتمام مفكراً ثم يقول:

- هي صاحبة الحقل الآن، وهي من كان يرافق جدي للعمل فيه.

- نعم، هذا مقنع.

- يجب أن لا نخبرها إننا اكتشفنا وجود الكنز هنا.

- لماذا..؟.

- لكي لا يضيع منا.

- كيف سيضيع ..؟.

- المهم أن لا تعرف ويجب أن نجعلها تخبرنا بوجود الكنز بنفسها.

- كيف..؟.

- بالحيلة.

لم أفهم ما يعنيه، وهو بدا عليه وكأنه يتصرف بدون أن يعرف أجوبة لما يقوله، فلماذا سيضيع الكنز ولماذا يجب الاحتيال على جدتي لمعرفة مكانه..؟، وبدا تصرفنا كله نتاج لمخاض مخيلة تزخر بالقصص، وكنا بلا إدراك نعيد تمثيل إحدى قصص المغامرات في الرحلات الأسطورية للسعي

وراء الكنوز المدفونة على إحدى الجزر النائية في عرض المحيط، والتي كانت أعمال البحث فيها تتم بسرية تامة.

في تلك اللحظات لم تفارق ذهني أشكال المستكشفين وأدواتهم وخرائطهم وساعاتهم وأرجلهم الخشبية وأربطة أعينهم السوداء، بل وتمادتْ المخيلة لاستجلاب سفينة كبيرة جداً تمخر عباب هذا الحقل، فلا يهم وجود بحر طالما إن السفينة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالكنوز والبحث عنها في مخيلتنا الحيوية.

وضِعَتْ الخطة ونهضنا للشروع في العمل. يجب علينا أولاً أن ننطلق من الإشارة التي عثرنا عليها والتي ستقودنا إلى حل ألغاز هذا الكنز وتحديد موقعه ولو بشكل تقريبي. وقفنا أمام الحجر نعاين الإشارة، ثلاثة خطوط شبه متوازية ومنحوتة بالحجر بفعل عوامل الطبيعة، ومن شكلها بانت لنا وكأنها من صنع إنسان ما، وبدأنا البحث عن التفسيرات لما نراه:

- ماذا تعني لك..؟.

- تقول: سِرْ باتجاه هذه الخطوط وستكتشف مكان الكنز أو وجود إشارة أخرى.

وللخطوط اتجاهين فبأي اتجاه نسير..؟، وكان الجواب لذلك:

- بما أن الحجر موجود عند باب الحقل وأحد اتجاهات الخطوط تتجه نحو بابه فهي تشير إلى خارجه ولا يُعْقَلُ أن تدفن جدتي كنزها خارج حقلها بل بداخله، إذا سنسير بالاتجاه المشير إلى داخل الحقل وبخط مستقيم تماما .

يقف أحدنا عند الحجر ويضع عينه عليه ويغمض الأخرى ليرى الخط المستقيم النظري الخارج من الخطوط ، بينما الآخر يسير بتوجيهات المراقب من مكان الإشارة.

- سِرْ ، سِرْرررررر، انعطف نحو اليمين قليلاً، نحو اليمييييييين، ليس كثيراً، خذ يسارك قليلاً ، قِفْ مكانك، هل لفت انتباهك شيء مااااا..؟.

- لاااااا.

- إذاً سِرْ قليلاً نحو الأمام، لقد انحرفتَ يساراً كثيراً، هكذا أفضل، أنت في مرمى النظر تماماً، ماذا وجدت..؟.

- لا شيء.

وأنهكنا الصراخ والحديث من مسافة بعيدة. والمنطقة الموجودة أمام الخطوط الثلاثة عبارة عن سهل ترابي واسع لا شيء فيه يلفت الانتباه، ولم نجد أمامنا سوى شجرة الصنوبر المرتفعة بشموخ في السماء كسارية سفينة، وعلى الفور، وخوفاً من انهيار الأحلام الوردية المتواردة علينا منذ بدء هذه المغامرة، قرّرنا بأن شجرة الصنوبر هذه هي ما تشير إليه تلك الخطوط المتعرجة على الحجر باعتبارها - الشجرة - معلماً بارزاً من معالم هذا الحقل، فركضنا نحوها بظفر كبير.

- هل الكنز مدفون أسفل هذه الشجرة..؟.

- لا.

- ولماذا..؟.

- لا تُدفن الكنور في أماكن مكشوفة وظاهرة للعيان، فكل شخص يشك بوجود كنز أسفل الشجر.

إنه قائد هذه الحملة وواضع الخطط ومفسر كل شيء فلا شك بقوله أبداً. إذاً شجرة الصنوبر هي الإشارة التالية ولا بد إنها تحمل إشارة ما ترشدنا إلى مكان الكنز أو إلى إشارة أخرى. نقف تحتها ونحدّق بأغصانها ونتساءل عن الإشارة التالية باهتمام بدى بنظرات أعيننا. هل الإشارة هي اتجاه الأغصان..؟. لا يمكن ذلك، فجدتي لا تتحكّم بنمو الأغصان، وما أمكنها أن تضع اتجاه الغصن كإشارة لوجود كنز ما، إذاً هناك إشارة ما تدل على ذلك. ويمر بنا وقت بدا كالمارد بطوله وعرضه وثقله حتى صاح أحدنا:

- المسامير.

ثوان مضت حتى أدرك الآخر ما معنى هذا فصاح بدوره :

- نعم، المسامير، إنها الإشارة الثانية.

وبسرعة تسلقنا الشجرة، وفي أعلى الوسط منها غصن دُقّتْ فيه ثلاثة مسامير صغيرة، ومع مرور الزمن حولها الصدأ إلى لون بني داكن، وكانت تبدو لنا بأنها موجودة منذ زمن بعيد جداً. لم نتساءل يوما عن سبب وجودها هنا، وكنا نراها وكأنها لا شيء أبداً. تسلّقنا الشجرة وأخذنا نعاين المسامير:

- اثنان في اتجاه واحد والثالث في اتجاه آخر.

- المسمار الثالث يدل على مكان الإشارة الأولى وهي الخطوط على الحجر عند مدخل الحقل.

- إذا اتجاه المسمارين المتلاصقين هو مكان الكنز أو مكان وجود إشارة أخرى.

وبعد هذا التفسير تتبعنا اتجاه المسامير بأعيننا فاستقرت على كومة من الحجارة بجانب شجرة تين مُعمرة في إحدى زوايا الحقل. تتسع العيون دهشة وتعمل المخيلة بنشاط كبير وتتوالى التفسيرات:

- مكان منعزل في إحدى الزوايا، وكومة من الحجارة.

- وشجرة التين، هي إشارة أخرى على مكان الكنز، طالما جدتي حدثتنا عن هذه التينة وكيف كان جدي يستريح أسفلها ويتناول طعامه.

- نعم، إنها إشارة واضحة ومكان ملائم لوجود الكنز.

- طبعا الكنز ليس أسفل التينة بل أسفل كومة الحجارة، فلا وجود للكنوز أسفل الأشجار.

- ربما لا كنز هناك بل إشارة أخرى.

- ربما.

ونعتلي كومة الحجارة تلك ونعاين بعضها بأعيننا دون أن نعثر على إشارة تقنع أحدنا بأنها تدل على وجود كنز ما هنا، وإن وجدنا من النقوش الطبيعية على الحجارة الشيء الكثير والكثير، وكان كل واحد فينا يجد نقشاً لا يقتنع به الآخر ويدور بيننا جدل كبير حتى نتفق على الرفض ونعاود البحث من جديد. ومرّتْ الساعات ونحن بهذه الحال حتى جلسنا أخيراً منهكين من التعب واليأس، ولنقرر، واستجلاباً لنهاية هذه المغامرة المحرضة لأحلامنا، بأ ن الكنز موجود أسفل هذه الكومة من الحجارة وذلك لعدم وجود أي إشارة أخرى تدلنا عليه، مكتفين بالمسامير وشجرة التين المعمرة والإشارة الأولى عند باب الحقل، وبدأنا عل الفور بالتخطيط للخطوة

الأصعب والأهم وهي استدراج الجدة للبوح بما لديها عن الكنز المزعوم.

ونجلس بجانبها بكثير من الاهتمام والحذر والمكر يلمع في قاع أعيننا السوداء الصغيرة متجاهلين على مضض ما تعده لنا من طعام لذيذ. أعلن القائد بدء التنفيذ بقوله المفاجئ:

- كنا في الحقل.

لم يبد على الجدة أي اهتمام أو أثر ما لاح في وجهها، فخاب جزء كبير من الآمال العريضة. ويتابع:

- لو تدرين يا جدتي ماذا رأينا هناك.

تتابع الجدة عملها في إعداد الطعام وتنصت برتابة زادت خيبة الأمل فينا. أي كنز تخبأه في الحقل وهي لم تكترث حتى لوجودنا هناك..؟، فلنتابع على أي حال:

- شاهدنا أفعى طويلة، فلحقناها للإمساك بها.

فعلت هذه الكذبة الصغيرة فعلها بالجد ة، فتركتْ عملها والتفتت إلينا باهتمام بالغ تحثنا على المزيد من الكلام وقد تبدّلت نظرتها الوادعة إلى أخرى توحي بكثير من الوعيد والتهديد. وقعت إذا بحبائل حيلتنا، والأفعى في نظرنا صديقة الجدات كما توحي لنا المخيلة الزاخرة بالخيال، وإنها تقتنيها وتأمنها على أشياءها لتحرسها لها، وكنا نعتقد بأن لجدتي أفعى تحرس كنزها ذاك. قالت الجدة بشيء من التوتر:

- وكيف تلاحقون الأفاعي في الحقل..؟.

- لحقنا بها إلى كومة الحجارة التي بجانب شجرة التين الكبيرة.

اتسعت عيناها غضباً في حين تحرّك الظفر بأعماقنا ونحن نراقبها وهي على تلك الحال، وكان خيالنا في نفس الوقت يرينا الحفرة الحجرية التي في باطن الأرض حيث الكنز موجود فيها، ونرى أنفسنا نهبط بضع درجات حجرية، ومن ثم نزيل خيوط العنكبوت من أمامنا ونستطلع الحجرة القديمة لنجد في قعرها صندوقاً خشبياً صُفِّحَ بالحديد وغطاءه مرفوع قليلا ويشع من أسفله نور أصفر خلاّب المنظر، فنقترب ونرفع الغطاء ونغمض أعيننا من بريق الذهب والمجوهرات، انقطع حبل الأحلام عندما فزعنا على صرخة جدتي في وجهنا:

- ألا تخافون لسعتها..؟، لا ذهاب لكم بعد اليوم إلى الحقل.

- لماذا..؟.

احتججنا، فارتفعت نبرة صوتها وأوحت بغضب شديد وقالت :

- تذهبون لملاحقة الأفاعي السامة..؟.

وجاءت اللحظة الحاسمة حسب المخطط عندما قال أحدنا:

- دخلت الأفعى في وكرها في كومة الحجارة، أتدري ماذا شاهدنا عليها..؟.

- لا أريد أن أعرف ، بل سأتصرف مع شيطنتكم هذه.

- شاهدنا يا جدتي خاتماً ذهبياً كبيراً معلقاً في ذيلها، كبير جداً يا جدتي وعليه جوهرة حمراء اللون.

الأفعى حارسة الكنز كما أرادتها المخيلة أن تكون، وهي تستلقي على القطع الذهبية والمجوهرات طوال يومها، ولابدّ

من أن يعلق بجسمها شيء من ذاك الذهب، والأفعى ستخرج حتماً من جحرها لتأكل، وإذا أوهمنا الجدة بأننا قد رأينا أفعى يحيط بجسمها خاتم من الذهب وبجانب التينة الكبيرة التي بجانب كومة الحجارة - المكان الافتراضي للكنز المزعوم- فستبوح بحقيقة كنزها المخبأ هناك لأننا كشفنا الحقيقة ولم يعد هذا سر. هذا ما كنا قد اتفقنا عليه من خطة لاستدراج الجدة بالحيلة والمكر، لكن المفاجأة كانت عندما تابعت جدتي غضبها ولم تكترث لأوهامنا تلك وقالت بصوت عالي:

- وتكذبون أيضا ..؟، سأربيكم جيدا.

نهضت إلى عصا الخيزران التي دائما تهددنا بها، فكانت الأرجل الصغيرة قد انتعلت أحذيتها وانطلقت تسابق الريح لتنجو بنفسها من العقاب، وتهديدات الجدة كانت تلاحقنا وتغمرنا كحبات المطر.

على كومة الحجارة تلك أمضينا بقية اليوم حتى حلّ المساء علينا ونحن نتجادل ونفسر أقوال جدتي وأفعالها وماذا ستفعل بنا إذا عدنا إلى المنزل، وكنا نتساءل: والكنز أهو موجود أم لا..؟، حاولنا إزالة بعض الحجارة، لكن التعب أنهك قوانا، فتخلينا عن الفكرة بعد أن تعاهدنا على أن نبقي الكنز مكانه حيث هو ونعود إليه عندما نكبر لاستخراجه طالما إن الإشارات معنا ونحفظ مكانها جيدا.

وعدنا عند حلول الظلام متسللين بحذر، وطوينا صفحة يوم حافل بالمغامرات والتخيلات واصطناع الحيل واختلاق المنطق الأعوج لمغامرة تحدثنا عنها الكثير والكثير فيما بعد، والتي كلفتنا أياماً قاسية من غضب الجدة علينا، وحاولنا كثيراً إقناعها بأننا لم نكن نلاحق الأفاعي في الحقل، ولم نجرؤ يوماً حتى على الاقتراب منها، وما قولنا هذا إلا حيلة أردنا أن

نمثلها لاكتشاف الكنز، ولم يرحمنا كل هذا من العقاب على خطأ لم نرتكبه أبداً عندما زعمنا إننا نلاحق الأفاعي السامة في الحقل.

****

مازال الحقل على حاله وإن طرأت عليه بعض التغيرات القليلة، وما زلتُ كلما ذهبتُ إليه تقع عيني على ذلك الحجر في بداية الحقل حيث الخطوط الثلاثة المتوازية والتي اعتقدناها إشارة لكنز ما، ودائما أبتسم وأقول لنفسي:

- لقد صدق الظن بها على مرّ الزمن وأصبحت إشارة إلى كنز غادرني منذ زمن وليته يعود، إنه طفولتي.